باريس تبكي

رمضان سعد محمود

باريس مدينة الحب و النور لم تكن هكذا في ذلك اليوم من شهر يناير .. حجبت الغيوم حصتها من أشعة الشمس .. بعدما هاجرت الطيور أعشاشها بحثا عن الدفئ .. رغم أن البعد عن الوطن مؤلم إلا أنه في بعض الأحيان لا بد منه .. فعلتْ كما فعلتُ حالمة بأن الوطن الجديد أفضل لكن صراعها للمكوث والبقاء ليس بالسهل ... لكنني تكيفت مع الجو هنا وهو لم يختلف كثيرا عن الذي تركته خلفي ..

من داخل معطم « Café de la paix » كنت أتباع ميدان الأوبرا بباريس وهو يكتظ بالفرنسين الأصليين ، طقطقة أرجل الخيول تمتزج بالوقَع الناتج عن الأمطار .. قبل أن تصبح شارة المرور حمراء تصرخ كل سيارة ببوقها المزعج فلتحل اللعنة على " روبرت بوش " مخترع التلوث السمعي ، على أحد الأرصفة المقابلة للمطعم تقف بائعة الورد مبتسمة رغم ما تحمله من حزن في عينيها الخضراويتان جمالها الفرنسي طاغي أشبه أن تكون أميرة القوام الفرنسي والبياض الناصع الذي لا تشوبه شائبة فقط .. النمش الأحمر زادها جمالا فوق جمالها وقد تكون هبطت من الجنة بذلك الرحيق .. كانت تنظر إلى الرصيف المقابل طامعة في جيوب العشاق حين توقفت حركة العربات والسيارات وتقابلت أعين فَرَسة بنية وصدر منها لجب دل على إضطرابها عند رؤيتها لفَحل أسود أصدر حمحمة دون أن يبالي بمشاعرها ، حتى الخيول في باريس عاشقة و محبة وبدأ الوقَع يمتزج مرة أخرى بصوت طقطقة أرجل المارة العابرين

للطريق ، عبرت فتاة صغيرة ترتدي معطفًا أحمر اللون يبدو ثقيلا على فتاة لم تتعدى الحادية عشر من عمرها و قبعة بنفس اللون خرج من أسفلها بعض الشعيرات الشقراء كانت تبكي برغاء ممسكة بيد أمها وتشير بيدها الأخرى على بائعة الورد ، جذبتها أمها بحدة وبين كل ذلك والدها ينظر إلى مبنى الأوبرا مغرما به ، بينما بائعة الورد منشغلة بعاشقين مغرمين في اختيار لون الزهور المحب يريد الأحمر والمحبة تريد الأصفر ، فحين عبر رجل مسن يرتدي معطفًا رماديًا الطريق يحمل تحت أحد إبطيه جريدة واليد الأخرى عصاه يتكئ عليها حتى وقف أمام فيوليت كما لقبتها فابتاع منها زهرة حمراء ثم عاد الطريق وأنحنى للفتاة الصغيرة بعد نقاش مع الأم لكي تقبل هدية العجوز للفتاة بينما الزوج تائه في جمال باريس الساحر ينظر إلى المباني المزخرفة بالتاريخ الفرنسي بعدها توقفت الطفلة عن البكاء أكملت طريق العبور بسلام و سعادة عارمة أظهرت براءتها الطفولية .

و مع كل دمعة تسقط من أعين ذلك الصغير الجالس أسفل شجرة على الجانب الأخر تسقط ورقة من تلك الشجرة كأنهما شخصا واحدا يشعران ببعضهما البعض فهو مشرد مثلها بدون أب أو أم كبذرة وجدت نفسها فجأة وسط هذا العالم ، أفلتت الفتاة يدها من أمها بينما كانت تتحدث مع أبيها العاشق لجمال باريس ذهبت الفتاة بإتجاه الطفل اليتيم حتى وقفت أمامه فرفع ناظره إليها ومدت يدها لتعطيه وردتها الحمراء بإبتسامة بريئة وقلب راضي عما يفعله ويتخلى عنه ، ابتسم الصغير بعفوية ومسح عن عينيه دموعه وأخذ منها الوردة ليقربها من أنفه وأخذ يملئ رئتيها من رحيقها لتبث بداخله الشعور بالإطمئنان لتعوضه بكل ما فقده ، ثم عادت الفتاة بسعادة أكثر من سعادتها بالحصول على الوردة عادت لتحبس نفسها بيد أمها التي لم تكف من

النقاش مع زوجها ، بدأ صوت إيديث بياف يتصاعد إلى عقلي " من جديد ... آرى المدينة هائجة ، محتفلة .....لاهثة تحت شمس السعادة ... وأسمع أنغام الموسيقى .. الصيحات والضحكات ...تتفجر ترتد من حولي ...وأبقى هناك .. مذهولة ، عاجزة ...ضائعة بين الحشود التي تدفعني ....وفجأة أستدير أنا ، ويتراجع هو ....ويلقيني الحشد بين ذراعيه " ... نظرت حولي فوجدت المزيد من البائسين .. محبان يجلسان أمام بعضهما في فتور .. وفتاة تجلس وحيدة تقطر دمعًا مع كل كلمة تقولها العصفورة الصغيرة " La mome " وفي يدها زهرة بنفسج تنظر إليها طارة وإلى فنجان القهوة أمامها طارة أخرى .. ربما ذلك الفنجان كان لحبيبها الذي تركها قبل مجيئي إلى هذا المكان ..لأنها لم تحتسي منه أي رشفة ومازال كما هو .. لكنها كانت تتجرع من كأس به شرابًا أصفر اللون مزج بدموعها التي تتساقط على البنفسج أمامها .. التي أمسكتها كثيرًا فتقربها من أنفها الدقيق . فتزداد دموعها نزفًا فتكتم أنينها بداخلها مع شهقاتها التي أطربت الحاضرين .. فهناك شاب يتابعها بعينين مشفقتين .. قام ذلك الشاب من جلسته بأناقة وثقة عالية حتى جلس أمامها دون أن تأذن له ودون أن يطرق بابها .. ببعض من كلمات الرجال الساحرة كفت الفتاة عن البكاء .. فأزهر وجهها من جديد .. حتى تشعر بأن القمر قد أضحى بدرًا .. ضحكتها قد أزاحت الغيوم في السماء فوقنا فأشرقت شمس باريس من جديد ..... ناديت على النادل لأدفع ثمن فنجان القهوة الذي تجرعته.... وما يميز باريس قهوتها... فهنا القهوة لها مذاق خاص يحمل كل التاريخ الفرنسي ، خرجت من المقهى أردت عبور الطريق لأقترب من وردتي الذهبية قبل أن تعود الجلبة مع إخضرار شارة المرور ، كذلك بائعة الورد اكتفت من ذلك الجانب .. ألتقت الأعين وتسارعت ضربات القلب شعرت بالحياة مجددا شعرت بأنني أنتمي إلى هنا ... حيث يوجد من تحب يوجد وطنك ، عبرنا

حتى منتصف الطريق وفتحت شارة المرور للعربات والسيارات ، وبين الزحمة انقلبت عربة الورد وسقطت معها فيوليت كسقوط دانتي في الجحيم وسقوط آدم من الجنة ، وقامت تجمع زهورها ركضت نحوها وانحنيت ألملم معها الزهوروتلملم هي ذاتي بجمالها ، تقابلت الأعين وتقاربت الأنفاس وتوحدت المشاعر ، أبواق السيارات المنتظرة تدق الطبول بعدما أعلن فؤادي الحرب ، جمعنا الزهور ونهضنا وأكمل كلا منا طريقه رغم أن الأرجل تأبى ذلك ومهما نبتعد فالقلوب تتقارب والمسافات تتلاشى حينها ، وقبل أن تصل للرصيف نظرت إلى نظرة أخيرة فحفرت صورتها في ذاكرتي وتاهت وسط الزحام ، إندثرت بين المعاطف الكبيرة والقبعات المبللة وذابت مع المطر .